الهمذاني بين العقل والجنون

سماح إدريس

عِنْدَما واجهت مَوضُوعَ الهمذاني بين العَقْلِ والجنون، لم يخطر في بالي أَنَّني سَوْفَ أتيهُ في فَضَاءِ عوالمَ مُعَقَّدَةٍ، وأن أَتَعَثَّرَ بالجاحِظِ والدميريِّ، جنباً إلى جَنْبٍ مع جانيه وفرويد ويانغ وغَيْرِهم. وكانَ الأَمْرُ يزدادُ تعقيداً عند اكتِشَافِ أيِّ جديد، لأنَّ الجَدِيدَ لا يَسْعَدُ بانتِصَارِه حتى يَدْخُلَ عامِلٌ جديدٌ آخر يُحيطُ نجاحَ المُنْتَصِرِ المزعومْ... لكنَّ المُنْتَصِرَ الأخير لا يلبَثُ أن يَجِدَ نَفْسَهُ غَيْرَ مُلِمٍّ بجوانبِ القَضِيَّةِ جميعِها.. فالحياةُ غَنِيَّةٌ، وغناها في تنوُّعِ موضوعاتها، بل في شموليَّتِها لِكُلِّ ما قَدْ يبدُو مُتَنَاقِضاً. وقد كانَ الهمذاني ــ في ظَنِّي ــ واعِياً بل هادِفاً ــ كما سَنبيِّنُ ــ إلى إبْرَازِ هذه الحقيقةِ الهامَّة وعليه، فقد اجتَهَدْت في تَلَمُّسِ موقف الهمذاني من العَقْلِ والجنون، عَبْرَ «مَنْهَجَيْنِ»: نفسيّ تَحْلِيليّ، ولُغَويّ. وأَبْدَأُ بالمَقَامَةِ الحُلْوَانِيَّة (بِجُزْئِها الأخير) التي يفوقُ غِنَى طَرْحِها للموضوعِ غِنَى المقامةِ المارستانيَّة.

يَرَى عِلْمُ النَّفسِ التحليليُّ أنَّ الجنونَ أو أيَّ انحرافٍ آخَرَ إنَّما هو «نتيجَةُ احتِكَاكِ الفَرْدِ وتَفَاعُلِهِ مع محيطِهِ الاجتماعي وتطلُّباتِ هذا المُحِيط المُتَنَاقِضَةِ، وقوانِينِهِ اللاعَقْلِيَّةِ، والعلاقَاتِ المَرَضِيَّةِ السَّائِدَةِ في العائِلَةِ والمدرَسَةِ والعمل...»[1]. وقد أَوْلَى هذا العِلْم، وخاصَّة منذ نِهَايَةِ القرنِ التَّاسِع عشر، اهتِماماً خاصاً للماضي. خُذْ مثلاً تجربةَ الكِتَابَةِ الآلِيَّة (الأوتوماتِيكِيَّة)[2]: فَفِيمَا يُجيبُ أحدُ المرضى على أَسئِلَةِ الطبيبِ، يُدخِلُ هذا الأخيرُ قَلَماً بين أَصَابِعِ الأَوَّل، ويَعْمَدُ ثالِثٌ إلى هَمْسِ بعضِ الأسئلَةِ الأُخرى في أُذُنِ مريضِ الهستيريا. والغريبُ أنَّ هذا يكتُبُ الإجابَةَ عنها في الوقتِ الذي يُتابِعُ مُقابلته مع الطبيب في موضوعٍ مُخْتَلِفٍ كُلِّياً عن موضوعِ الأسئِلَةِ المهموسِ بها! إنَّ المريضَ لا يَجْهَلُ ما تَفْعَلُهُ يَدُهُ فَحَسْب، بل يجهل كذلك أيَّ مَعْرِفَةٍ بالأحداثِ التي تَصِفُهَا كِتَابَتُهُ! لذا، فقد ربط علماءُ النَّفْسِ بَيْنَ هذه الأحداث وماضي المريضِ المنسيّ.

ولكن، قَبْلَ الانتِقَالِ إلى فائِدة ثانِيَةٍ نَسْتَخْلِصُهَا من تجربة الكتابة الآلية، مَهْلاً! هل أَدَّعَيْنَا أَنَّ البديعَ أَغْفَلَ ماضي الحجَّام؟ والجواب أنَّه رُغْمَ السطورِ القليلَةِ فإنَّنا نستَطِيعُ أن نَسْتَشِفَّ ملامِحَ غامِضَةً لماضي البَطَل سنبيِّنُها لاحقاً. ولكن يكفي الآن أنْ نُلاحظَ التالي: إنَّ الحَجَّام من الإسْكَنْدَرِيَّة، إلاَّ أنَّه يسكُنُ في حُلْوان. إنَّه مُقْتَلَعٌ من جُذُورِهِ، مَزْرُوعٌ في بيئَةٍ «لا يوافِقُهُ مَاؤُهَا»[1]. وإنَّنا نرى أَثَرَ البيئَةِ الأصليَّة (في الماضي) في تفكيرِ الحجَّام عند استذكارِهِ للنِّيل. فهل يُعاني أبو الفَتْح من (الاسْتِلاب) أي الغربة؟

وأمَّا الفائِدَةُ الثانِيَة لتجربةِالكتابَةِ الآلِيَّة، فهي إعطاؤنا مفتاحاً للتَّعَرُّفِ على ما قد يكونُ مَظْهَراً من مَظاهِرِ «الانحِرافِ» عند «المريضَيْنِ»: مريض الهستيريا، وحجّام عيسى بن هشام. هذا المَظْهَر هو عَدَمُ تَمَاسُكِ الوَعي (Dissociation of Consciousness). فما هي هذه الظاهِرة؟

لو أَلْقَيْنَا نَظْرَةً دَاخِلِيَّةً إلى عَقْلِنَا، لَأَلْفَيْنَاهُ وحدةً لا تَتَجَزَّأ؛ نهراً من الأفْكَارِ يَنْصَبُّ نحو هَدَفٍ مُحَدَّدٍ.. لن يَبْدُوَ لنا مجمُوعَةَ أَحاسِيس وأفكارٍ ورَغَبَاتٍ يَجري كُلٌّ منها مُنفَصِلاً عن الآخر؛ لكنَّ الواقِع يدلُّنا على إمكانِ حُدُوثِ العَكْسِ حتى عند الإنسانِ «العاقِل»[2]: فباستِطَاعَتِي ــ إذا كُنْتُ عازِفَ بيانُو ماهِراً ــ أن أعرفَ مَقْطُوعَةً مَا، وأَنْ أنجَرِفَ في الوقتِ نَفْسِهِ بالتفكيرِ في أَمْرٍ آخَرَ على دَرَجَةٍ من التَّعْقِيدِ. في هذه الحال يَتَّضِحُ أَنَّ عَقْلِي لَيْسَ حَقْلَ وعيٍ

(١) Zimbardo and Ruch, *Psychology and Life*. 9th Edition, p. 289.

(٢) B. Hart, *The Psychology of Insanity*. 5th Edition, p. 42.

(١) مَقامات بديع الزَّمان الهمذاني، ص ١٧٤. ط: دار المشرق.

(٢) Hart : المصدر السابق، ص ٤١.

مُتجانِس وإنَّما حَقْلٌ مقسُومٌ في قِسْمَيْنِ يَسْتَدْعِي كُلُّ قِسمٍ منهما طاقَةً ذِهْنِيَّةً مُعَيَّنَةً.

في المثالِ المذكورُ، يَبْقَى هذا الانقسامُ في الوَعيِ عَرَضِيّاً، ويظَلُّ المرءُ مالِكاً لزِمَامِ أَمْرِهِ، قادِراً على العَوْدَةِ بتفكيرِهِ إلى الفِكرَةِ الأصليَّة. لكنَّ هذا الانقِسَامَ يغدو عند بعضِ المرضى عَقْلِيّاً انفصَاماً كُلّياً: فالعَقْلُ، آنذاك، يحتشِدُ بأفكارٍ جديدَةٍ ويجهل في الوقْتِ عينِهِ الأفكار التي لَمَّا يمض على وُرُودِها إليه دقيقَةٌ أو أقَلّ! وقد سَمَّى العُلَمَاءُ هذا النَّوعَ الخطيرَ من الانقِسَامِ: النَّيْدَلَة (أو السَّرْنَمَة أو «الرَّوْبَصَة»)[1] (Somnambulism)[2].

والسُّؤالُ الآن: أيكُونُ الحجَّامُ «مُرَوبِصاً» بالمعنى العِلمي للكَلِمة؟ فإنَّنا نُلاحِظُ أنَّ الفِكْرَةَ الجديدَةَ عنده تَطْغَى على فكرةٍ قَدِيمَةٍ؛ والأُولى بدورِها تَطغَى عَلَيْهَا فِكْرَةٌ جَديدَةٌ أُخْرَى، وهكذا دَوالَيْك (الصَّلاة في قُم، مدُّ النّيل، الحرب، الهريسة، النّحو، . . .) أو يكونُ مُتَعَدِّدَ الشّخصيّاتِ؟ أم أنّه يُعاني فُقْدَانَ الذّاكرة (Amnesia)؟ والحالات الثلاث جميعُهَا تَدُلُّ على عَدَمِ تَماسُكِ الوعي[1].

كُنَّا نَقولُ إنَّ الحَجَّامَ غَيْرُ مُتَماسِك الوعي (أيّاً ما كانت دَرَجَةُ عدم التماسُك). لَوْلَا الحقِيقَةُ التاليَة: لَيْسَت كُلُّ فِكرةٍ جديدَةٍ ينطُقُ بها تَامَّة الانفِصَالِ عن سابِقَتِها: (فَقُمُّ) ليست فِكرةً مُنْقَطِعَةً عن (السُّنَّة)، رغمَ تناقُضِ ما تَدُلُّ عليه الفِكرتان، بَلْ بِسَبَبِ تناقُضِهِمَا: فَإبْرَازُ التناقُضِ دليلٌ على وعيِ «المجنونِ» المتماسك! كذلك القَوْل في فكرتي (صلاة العشاءِ) و(اعتدال الظِّلّ). ثُمَّ إنَّ فكرَةَ (الخُفِّ) لَيْسَت مُنَبِّتَةَ الصِّلَةِ بِمَدِّ النّيل؛ كما أنَّ المُبَرَّدَ يُذَكِّرُ بالمِبْرَدِ، والمِبْرَدُ بالمُوسى لأنَّ كَلَيْهِمَا للتشذيبِ!

إذَنْ، رغْمَ وجودِ أفكارٍ لا علاقَةَ لها بِسَابِقَاتِهَا (في الظّاهِرِ فَقَط!) فإنّه من جِهَةٍ أُخرى تُوجَدُ أَفْكَارٌ دَفَعَتْهَا إلى النُّورِ عَمَلِيَّةُ التَّداعي (Association of Ideas).

لَكِن، ماذا عن الأفكار الأخرى؟ ما عِلاقَةُ قُم بالنّيل بالهريسة؟ هنا، لا بُدَّ من الاستِفَادَةِ من حقيقَةٍ ثانِيَةٍ أَهَمَّ يذكُرُها الهمذاني على لِسَانِ «من حضر»: «وَوَراءه فَضْلٌ كثيرٌ!»[1] فماذا فَعَل العِلْمُ بالحَجَّام؟

عِنْدَ الدُّخولِ في كُنْهِ الأشياءِ، تَزُولُ كُلُّ الثُنائِيّات وفي طليعَتِها: ثُنائِيَّة (الماضي ـ الحاضر)؛ و(النّورُ ـ الظّلام)، و(المكان الأوَّل ـ المكان الثاني)، و(الفكرة ـ الفكرة المُضَادَّة). . . فالحَجَّام يَحْيَا الحياةَ بِكُلِّ أزمِنَتِها، وبِكُلِّ أَمْكِنَتِها، ودَفْعَةً واحِدَةً: فالمَصَابِيحُ التي أُشْعِلَتْ في مسجِدِ قُمّ ذَكَّرَتْهُ ـ على ما يبدُو ـ بزَمَانِهِ الأوَّل في الإسكَنْدَرِيَّة، عِنْدَمَا كان صبيّاً يُصَلِّي في أَحَدِ مساجِدِها. . . وفجأةً يطوفُ النّيلُ فيعْتَرِيهِ الخَوْفُ، ويَفِرُّ لتلتَقِيَهُ ذِراعا أُمِّه المُتَلَهِّفَة. . ثُمَّ تَقَعُ الحَرْب. . أَمَّا الهريسَة والنَّحو وعلم الكَلام فليست في الحقيقَةِ بعيدة عَنْها. . إنَّما الكُلُّ يَتَدَاخَلُ في الكُلِّ، والتَنَاقُض أو التَّشَعُّبُ في الموضوعات لَيْسَ إلَّا من صُنْعِ العَقْلِ، ولا يَخدمُ إلَّا العَقْلَ. وهذا العقلُ بعيدٌ عن حقيقَةِ الحياة الغَنِيَّة، والتي لن تُعْرَفَ إلا بالتجربةِ الدَّاخِلِيَّةِ الحَمِيمَةِ بِحَيْثُ يُصبح الإنسانُ والحياة مرآتَيْن تَعْكس واحدتُهما الأُخرى، دونَ أيِّ عائق، وأوَّلُ هذه العوائق: العَقْل.

لقد تَوَصَّلَ الحَجَّامُ عن طَرِيقِ العقل (الفَضْل الكثير) إلى عبثِيَّةِ هذا العقل لأنَّهُ قاصِرٌ عَنْ رؤيَةِ وحدةِ المكانِ، وَوحدَةِ الزَّمَنِ، وَوِحْدَةِ التَّجْرِبَةِ الإنسانيَّة.

بالنِّسْبَةِ لمجنونِ المارِستان، أعتَقِدُ أنَّ اتِّبَاع «مَنْهَجٍ لُغَوِيٍّ» قد يُسَهِّلُ لنا التحديد. فقدْ قِيلَ إنَّ «المجنونَ» من الجِنّ أي الأرْواح الخَفِيَّة تَصْرَعُ النَّاسَ فينتجُ لمن تَصْرَعَهُ

(١) قامَ البروفسور جانيه (Janet) (ت ١٩٤٧) والذي يُعْتَبَرُ الرَّائِد الأوّل للاتجاه النفسي في تحليلِ ظاهرَة الجنون (مُقابل الاتجاه الفيزيولوجي) بتجربةٍ عُرِفت بتجربة ايرين Irene. فإيرين اعتَنَت بأُمِّها المريضَة مُدَّةً طويلَةً قبلَ أن تموت الأم. بعد موتِها، بدأت الفتاة تعيشُ حالاتٍ غريبة: فهي في أثناءِ حديثها غالباً ما تَتَوَقَّفُ لتُعِيدَ تمثيلَ مشهدِ موتِ أُمِّها بِكُلِّ زَخمِهِ وتفاصِيلِهِ. وخلال التمثيلِ، تفقد إيرين كُلَّ صِلَةٍ بالواقِع: فلا تسمَعُ ما يُقَالُ لها، ولا تَرَى أمامَها إلا مشهد الماضي المروع، إلى أن ينتهي المَشْهَدُ، فتعودُ إلى حديثِها السَّابِق غيرَ واعِيَةٍ لكُلِّ ما مَثَّلَتْهُ!

(٢) انظُر قاموس المنهل (عبدالنّور وإدريس).

(٣) Freedman & Kaplan: *Comprehnsive Textbook of Psychiatry.* Williams & Williams p. 885.

(١) المقامات، ص ١٧٥.

الجنونُ بمعنى داء الجنون[1]. والشيْطان نفسُه الذي يذكُرُه عيسى بن هشام ليسَ إلا نوعاً من الجنّ[2]. ثُمَّ، ألا تُذكرُنا نظرات «المجنون» الغريبَةِ المُتَرجرجة عند استقباله الزائرِيْن بالخابِل، وهو الجِنّيُ الذي يخبل النَّاسَ بأعيانهم[3]؟

وقِرَاءَةُ الغَيْب عن طريق الطير، ألا تُكَمِّلُ الجَوَّ المسرحي (Setting) لممارَسَةِ السِّحْرِ؟ ويعبُقُ الجَوُّ بالسِّحْرِ في ختامِ المقابَلَةِ حين يكشف «المجنون» عَمّا في نَفْسِ عيسى من عَزمِهِ على خطبة بِنتٍ من بناتِ المُعتَزِلَةِ رغم أَنَّ هذا الأخير «لَمْ يُحَدِّثْ بما هَمَّ به أَحداً».

الخُطْوَةُالتالية التي يجب أن نخطُوهَا هي الإجابَةُ عن علاقَةِ الجنّ بالعَقْلِ.

من المَعروف أنّ أشهرَ أنواعِ الجنّ عَبْقَر. وعبقر «موضِعٌ بالبادية[4] يُنْسَبُ إليه جِنٌّ يُعْرَفُ به»[5]. ويَظْهَرُ أنَّ هذا الجن فاقَ في مآتيهِ أترابَهُ حتى نَسَبوا إِلَيْهِ: «كُلَّ شيْءٍ فائقٍ غريبٍ مِمَّا يَصْعُبُ عَمَلُهُ ويَدِقُّ..»[6]. ومنه كَلِمَةُ عَبقَرِيّ. فالعبقري، بالتالي، جنّيٌّ، أي مجْنونٌ.

لنرجع إلى الحجّام، فماذا نجد في حُجَجِهِ؟ نَجِدُها توحي في ظاهِرِها بالعقلانِيَّة، بينما تُخفي في تضاعِيفِها تضليلاً لا يَخْتَلِفُ في شيءٍ كثيرٍ عن السِّحْرِ نفسِهِ!

لا أَحَدَ يستطيعُ إنكارَ معرفةِ «المجنون» للقُرآنِ والحديث، واطّلاعِهِ الوافي على مذاهِبِ المتكلّمين وتاريخِ المُسلمين وصِراعِ فِرَقِهِم.. ولا بُدَّ من الإقرارِ أنَّ القارىء لأوَّلِ وَهْلَةٍ يَقِفُ أمام حُجَّة المجنون «لا يحيرُ جواباً» كما وَقَفَ من قبلِهِ أبو داود وعيسى بن هشام. لكنَّه (أي القارىء) لن يلبث أن يكتَشِفَ هشاشة المنطِقِ الذي استخدمه المارستانيُّ: صحيحٌ أنَّ المُعْتَزِلة يقولون إنَّ خالِقَ الظُّلَم ظَالِمٌ، لكنَّ هذا لا يستدعي الاستنتاج بأنَّ خالقَ الهَلْكِ هالك. فالمُعتزلة، قبل كُلِّ شيءٍ، مؤمنون بأنَّ الله حيٌّ لا يَموت، وَأَنَّهُ خَلَقَ الحياةَ، وخَلَقَ الموت، لكنَّه لم يخلق الأفعالَ. وآقرأ من جهة ثانية ما يلي: «إِنَّكُمْ أَخْبَثُ من إِبْلِيسَ دِيناً. قال: رَبِّ بما أَغويتني فأَقَرَّ وأَنْكَرْتُم، وآمَنَ وَكَفَرْتُمْ..»[1]. فلو ناقشنا المارستاني انطِلاقاً من منطقِهِ هو لقُلْنا: إبليس اعترفَ بأنَّ اللّهَ أغواه، فلماذا يكونُ شرّيراً؟ الجواب المنطقي: لأَنَّهُ قَبِلَ الغِوَايَةَ. إذن حتى يكونَ المرءُ خَيِّراً عليه ــ على الأقل ــ أن يختارَ أنْ يرفُضَ الإضْلال! وهذه النتيجةِ هي عكس ما توصَّلَ إليه المجنونُ.

ويَبْلُغُ التَّضْليلُ ذرْوَتَهُ عندما يُعاتِب المارستانيُّ عيسى على زواجِهِ من مُعتزلةٍ قائلاً: «هَلاَّ تَخَيَّرْتَ لِنُطْفَتِكَ» وفي هذا القول نَسْفٌ للتفكيرِ الجبريِّ من أساسِهِ. لكنَّ الجَوَّ السِّحْرِيَّ الذي وُضِعَ فيه الزائِران، وسِعَةَ معلوماتِ المارستاني، وقُوَّةَ التقريعِ الذي أَسْبَغَهُ عَلَيْهِما، وكشفَه أخيراً لِسِرٍّ باطِنٍ، هذه العوامل جميعُها ضَيَّعَت عَلَيْهِما مُلاحظَةَ خداعِهِ.

وهكذا يغدُو العَقْلُ ــ في حال دَفْعِهِ إلى نتائِجِهِ النهائِيَّةِ ــ جنوناً أو سِحْراً لأَنَّهُ يَعْتَمِدُ التضليلَ واستخدامَ المنطِقِ المُتناقِضِ في ذاتِهِ. وتَخُرُّ الحقيقَةُ مُضرَّجةً بدِمائِهَا أمامَ جَلاَّدِهَا العَقْل؛ فهو هو الذي يَجْعَلُ من الحقِّ حَقّاً، وهُوَ هُوَ الذي يُمَوِّهُ الباطِلَ ليُحَوِّلَه حَقّاً:

أنا في الحقِّ سَنَامٌ أنا في الباطِلِ غارِبْ

وعلى تُخوم المقامَتَيْن، يتراءى وَجْهُ الهمذاني ساخِراً من العقل الذي لن يكون إلّا جنوناً في حالِ اعتماده سبيلاً أوْحَدَ للوصولِ إلى الحقيقَةِ، وتَسطعُ صُورَةُ الحجّام داعِياً إلى إحْلالِ التجرُبَةِ بِكُلِّ أَبْعادِهَا مكانَ العَقْلِ ذي البُعْدِ الواحِدِ!

---

(١) نُهاد توفيق نعمة: الجنّ في الأدَب العَرَبي. رسالة مُقَدَّمة إلى الدائرة العربيّة في الجامعة الأميركية في بيروت لنيل شهادة الماجيستير (١٩٦٠)، ص ٢٤.

(٢) تاج العروس (جنن).

(٣) الجديرُ بالذِّكر أنَّ الخابل تعني الجنّي، وتعني المجنُون!! (اللّسان ــ مادة (خبل)).

(٤) وقال ابن سيده: قريةٌ باليمن. (اللّسان).

(٥) اللّسان.

(٦) ابن الأثير في (اللّسان).

(١) المقامات، ص ١٢٢.

المراجع

(أ) المراجع الأجنبيّة:

(١) Freedman & Kaplan: *Comprehensive Textbook of Psychiatry* Williams & Williams.

(٢) Hart, Bernard (M.D.), *The Psychology of Insanity*. 5th Edition Cambridge, 1958.

(٣) O'Brien-Moore, Ainsworth, *Madness in Ancient Literature* (A dissertation presented to the Faculty of Princeton University in Candidacy for the Degree of Doctor of Philosophy.) R. Wagner Sohn, Weimar, 1924.

(٤) Zimbardo &: Ruch, *Psychology and Life*, 9th Edition, Scott. Foresman, (1977).

(ب) المراجع العَرَبيَّة:

(١) الجاحظ: كتاب الحيوان (الجزء السادس). تحقيق محمد عبدالسلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، (ص ١٧٢ ــ ٣٥٠).

(٢) الدميري، كمال الدين (ت ٨٠٨هـ): حياة الحيوان الكبرى (المختار منه). اختيار محمد الحافظ، مراجعة عبدالحميد الدواحلي (ص ١١٣ ــ ١١٤). وزارة الثقافة والإرشاد القومي ــ الإقليم الجنوبي.

(٣) نعمة، نهاد توفيق: الجن في الأدب العربي. رسالة مُقَدَّمة إلى الدائرة العربية في الجامعة الأميركية لنيل شهادةالماجيستير (١٩٦٠).

(٤) الهمذاني، بديع الزمان: المقامات. قدَّم لها العلاَّمة الشيخ محمد عبده. دار المشرق (١٩٧٣).

□ □ □

دار الآداب تقدم

مؤلفات الكاتب العربي الكبير

حنا مينه

- المصابيح الزرق (طبعة جديدة)
- الشراع والعاصفة (طبعة جديدة)
- الثلج يأتي من النافذة (طبعة جديدة)
- الشمس في يوم غائم
- الياطر
- بقايا صور
- المستنقع (طبعة جديدة)
- الأبنوسة البيضاء
- المرصد
- حكاية بحار
- الدقَل
- المرفأ البعيد
- الربيع والخريف
- مأساة ديمتريو
- ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
- ناظم حكمت ثائراً
- هواجس في التجربة الروائية
- كيف حلت القلم
- أدب الحرب

(بالاشتراك مع د. نجاح العطار)